قبسات في دفاع الصحابة عن النبي صلى االله عليه وسلم

إن دفاع الصحابة عن النبي ﷺ بأنفسهم وأموالهم وبكل ما أعطوا من قوة واسع لا يحاط به إلا على سبيل ضرب بعض أمثلة تدل على مظاهر حقيقة المحبة النابعة من صميم القلب، والمتمثلة آثارها في القول والعمل في الدفاع عن عرض رسول االله صلى االله عليه وسلم ومكانته بكل غال ونفيس، سواء كان في حياته أو بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، فمن أبرز قبسات في دفاع الصحابة عن النبي ﷺ ما يأتي:

شعار الصحابة القولي: "يا رسول االله .. بأبي أنت وأمي"

كان حب الصحابة للنبي صلى االله عليه وسلم حبا فوق الوصف، حب نبت من صميم القلب ويلوح في أجسادهم لما أيقنوا أن السعادة والفوز والمجد والشرف والنجاة في تحقيق هذه المحبة، وهم قوم جربوا جاهلية قبل الإسلام، وأدركوا البون بين الحياتين كما يبين النور من الظلمات، ولم تكن محبتهم للنبي صلى االله عليه وسلم تقال بألسنة مجردة، وما كانت مقولتهم الشهيرة بينهم " يا رسول االله بأبي أنت وأمي" إلا شاهدة على ما في الضمائر، وتشير إلى أقصى استعدادهم في أية لحظة لفداء أنفسهم دفاعا عنه صلى االله عليه وسلم.

وهذا عمر رضي االله عنه يقول للرسول عليه الصلاة والسلام بدون مجاملة ولا نفاق: " فأنت الآن واالله أحب إلي من نفسي"[1].

ويأتي رجل منهم تدفعه تلك المشاعر وهو لا يملك نفسه فيقول للنبي صلى االله عليه وسلم معبرا عن الحقيقة الدخيلة في نفسه: يا رسول االله ! إنك لأحب إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من أهلي، وأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبي شيئاً حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية:{ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين} [النساء: 69][2]

وهذه المحبة أعلى درجات المحبة – بعد محبة الله تعالى- وهي المحبة الكبرى، لأنها محبة اختيارية إيثارية واجبة، وليست ثانوية أو مخيرا فيها الإنسان، وإنما هي مقدمة على الأهواء والميول والطباع، ومقدمة على هلكة النفس والأهل والمال، لذلك ترتب عليها أعظم الأجر والجزاء في الدنيا والآخرة، وإنها لخير الزاد لمن يريد أن يتزود، وجاء أعرابي شاسع الدار إلى الرسول صلى االله عليه وسلم فقال: يا رسول االله متى الساعة؟ فقال له رسول االله صلى االله عليه وسلم: "ما أعددت لها؟" قال:" حب االله ورسوله، قال:" أنت مع من أحببت"[3].

وما أعظم أجر من حاله هذه أن يحشر مع النبي صلى االله عليه وسلم!! فلا ريب أن الصحابة رضوان االله عليهم هم السابقون الأولون في تحقيق هذه المحبة، لذا قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بعد الإسلام بشيء ما فرحوا به، ثم أعلن أنس رضي االله عنه واقعه تجاه هذه المحبة الرائعة، فقال في آخر الحديث:" فأنا أحب رسول االله صلى االله عليه وسلم وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم.[4]

ولما قيل للنبي صلى االله عليه وسلم: لو أتيت عبد االله بن أبي، فانطلق إليه النبي صلى الله عليه وسلم وركب حمارا، فانطلق المسلمون يمشون معه – وهي أرض سبخة – فلما أتاه النبي صلى االله عليه وسلم فقال له ابن أبي بن سلول المنافق: إليك عني واالله لقد آذاني نتن حمارك، فما يكاد ينتهي من هذا الكلام حتى رد عليه رجل من الأنصار فورا فقال: واالله لحمار رسول االله صلى االله عليه وسلم أطيب ريحا منك.[5]

وإن هذا الموقف من المواقف المشرفة الذي يترجم لنا معنى محبة النبي صلى االله عليه وسلم المطلوب، وهذا الصحابي الجليل مدني، وابن أبي بن سلول مدني بل من سادات أهل المدينة، ومع ذلك لا تمنع الصحابي حمية قومية أن يذب عن مقام النبي صلى االله عليه وسلم.

أفعال الصحابة المطابقة لأقوالهم

ما وصلتنا من أخبار فداء الصحابة رضي االله عنهم وحرصهم الشديدة على النبي ﷺ بطرق متواترة، لولا ذلك لكنا نعد تلك الأخبار ضربا من الخيال والأساطير لا حقيقة لها، لكنها أخبار مسجلة في كتاب االله عز وجل ومسطورة في أصح الكتب الحديثية وغيرها مما لا يدع أدنى شك في تصديقها، فإن االله تعالى "نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد صلى االله عليه وسلم فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه.[6]

وصحبوه صلى االله عليه وسلم في السراء والضراء، وشمروا سواعدهم عن ساق الجادة في سبيل الدفاع عنه صلى االله عليه وسلم، فآثروه على المال والولد، فقالوا له: "هذه أموالنا بين يديك فاحكم فيها بما شئت، وهذه نفوسنا بين يديك لو استعرضت بنا البحر لخضناه، نقاتل بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك[7]".

وقد تعددت الصور والوقائع التي تعبر عن مدى تفانيهم ودفاعهم عن النبي صلى االله عليه وسلم في حياته، ومن تلكم:

1 – **التسليم التام لأمره عليه الصلاة والسلام دون تردد**

من صور إيثار الصحابة رضوان االله عليهم تعظيم مكانة الرسول صلى االله عليه وسلم وأمره: هو التنازل عن حقهم الخاص حبا وسمعا وطاعة له عليه الصلاة والسلام، كما حصل لكعب بن مالك أنه يتقاضى ابن أبي حدرد دينا له عليه في عهد رسول االله صلى االله عليه وسلم في المسجد، فارتفعت أصواتهما حتى سمع رسول االله صلى االله عليه وسلم من داخل بيته، وكشف سجف حجرته ونادى كعب بن مالك: يا كعب، قال: لبيك يا رسول االله، فأشار بيده أن ضع الشطر من دينك، قال كعب: قد فعلت يا رسول االله"[8].

وتكرر مثل هذا أيضا معه في قصة تخلفه عن غزوة تبوك، وهي قصة مملوءة بفوائد جمة ومن ذلك ما قاله كعب رضي االله عنه أنه لما مضت أربعون ليلة من الخمسين:"إذا رسول رسول االله صلى االله عليه وسلم يأتيني فقال: إن رسول االله صلى االله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها.[9]

فقوله" أطلقها أم ماذا أفعل؟" دلالة واضحة لسرعة الاستجابة لأمر رسول االله صلى االله عليه وسلم ولو أمره بطلاقها ما تردد في التلبية، مع كونه في وقت الذى ضاقت عليه الأرض بما رحبت إلا أنه أدرك أن في الاتباع والتسليم نجاة وفلاح لا غير.

وهكذا ديدن الصحابة في جميع الأوامر والنواهي الصادرة عن رسول االله عليه وسلم، إذ الطاعة والامتثال من لوازم المحبة ومقتضياتها وثمراتها.

2- **الاستئذان في رد الفعل عنه صلى االله عليه وسلم**

الغيرة الدينية والحمية الشريفة هي المحركة الأساسية الدافعة بالصحابة إلى الذب عن أي طعن موجه لرسول الله ﷺ، ولعل عمر بن الخطاب رضي االله عنه أشهرهم في هذا الباب، وكم من حادث وموقف نراه يقول:" دعني أضرب عنقه" غيرة وغضبا لله تعالى ولرسوله صلى االله عليه وسلم، فيكفه عنه صلى االله عليه وسلم ثم يبين له العلة، وقد قال عمر رضي االله عنه مرة في شأن ابن أبي بن سلول" دعني أضرب عنق هذا المنافق " ومنعه عليه الصلاة والسلام معللا سبب المنع فقال: أتريد أن يقول الناس إن محمداً يقتل أصحابه ؟!"[10]

3 – الاستعداد الكامل لفداء أنفسهم من أجله عليه الصلاة والسلام

وكم سجل لنا صحيح التاريخ من أخبار سعي القوم – رجالهم ونسائهم- وتنافسهم في تضحية الأرواح والأموال والأهل من أجل الدفاع عن الرسول صلى االله عليه وسلم، وكان أبو بكر الصديق رضي االله عنه، وأهل بيته خير القدوة في سبق نصرة النبي صلى االله عليه وسلم والذب عنه وخاصة في مكة، ساعة العسر، حيث رؤوس الكفرة آذوا الرسول عليه الصلاة والسلام إيذاءا شديدا في غير مرة، وقام أبو بكر دونه بالدفاع عنه وتخليصه منهم ثم يصيح بهم:" أتقتلون رجلا أن يقول ربي االله .[11]

وكذا في قصة هجرته مع النبي صلى االله عليه وسلم وإنه وأهله جاهدوا بأنفسهم في سبيل نجاح الرسول ﷺ في خطة خروجه من مكة إلى المدينة؛ مع رجحان احتمال تعرضهم لكل أنواع الأذى والأخطار، ولا يطمأن أبو أبكر على رسول االله صلى االله عليه وسلم إلا بعد وصولهما المدينة، وقد عبر عن بعض ذلك المشهد سراقة بن مالك حين قال:" وأبو بكر يكثر الالتفات" يعني أثناء الهجرة إلى المدينة خوفا وذبا عن النبي صلى االله عليه وسلم، إلى حد أنه رأى الشمس قد أصابته – حينما قدما المدينة ولم يعرفه أهلها- أقبل أبو بكر حتى ظلل عليه صلى االله عليه وسلم بردائه فعرفه الناس.

وكذا للصحابة تضحيات رائعة لم يعرف لها التاريخ نظيرا في غزوة أحد، كان أبو طلحة يسور نفسه بين يدي رسول االله صلى االله عليه وسلم، ويرفع صدره ليقيه سهام العدو، "ويشرف النبي صلى االله عليه وسلم ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة : بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم ،نَحْري دون نحرك!!![12]

ولم يكن ذاك الحب والدفاع خاصا بالكبار فقط، حتى الصبيان ينتصرون للنبي صلى االله عليه وسلم ويغارون عليه، ولما سمع معاذ ومعوذ ابنا عفراء تطاول أبي جهل وسبه للنبي صلى االله عليه وسلم نذرا أنفسهما بالانتقام منه والقضاء عليه، يقول عبد الرحمن بن عوف رضي االله عنه: بينا أنا واقف في الصف يوم بدر فنظرت عن يميني وعن شمالي فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، تمنيت أن أكون بين أضلع منهما فغمزني أحدهما فقال: يا عم هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم ما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول االله صلى االله عليه وسلم والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، قلت: ألا إن هذا صاحبكما الذي سألتماني فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه.[13] هكذا انتقم أطفال الصحابة ممن يسبّ رسول االله صلى االله عليه وسلم غيرة وغضبا لله تعالى ولرسوله الكريم عليه الصلاة والسلام.

4 – ترك مداهنة ذوي القرابة في مقابل عرض النبي صلى االله عليه وسلم

لم يجامل عبد االله رضي االله عنه والده عبد االله بن أبي بن سلول رئيس المنافقين لما تكلم في رسول االله صلى االله عليه وسلم: " واالله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل "..فوصل الخبر إلى ولده عبد االله، وذهب إلى أبيه المنافق قائلا: واالله لا تنفلت حتى تقر أنك أنت الذليل ورسول االله صلى االله عليه وسلم العزيز!! ففعل[14]

هكذا صورة محبة الرسول عليه الصلاة والسلام والولاء والبراء مترجمة عملية من الضمائر في واقع الحياة، أطاعوه وآثروه على كل شيء حبا وتدينا.

وقد سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كيف كان حبكم لرسول الله ﷺ؟، قال: "كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ[15].

[1] رواه البخاري في صحيحه, ص: ١١٤٦ برقم(٦٦٣٢)

[2] رواه الطبراني في معجم الأوسط وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٦ / ١٠٤٤

[3] رواه البخاري (٣٦٨٨)

[4] المصدر السابق (٣٦٨٨)

[5] رواه البخاري (٢٦٩١)

[6] مسند الإمام أحمد ٢/١٧

[7] ينظر في مسلم مختصرا (1739)

[8] رواه البخاري (٢٧١٠)

[9] المصدر السابق. (٤٤١٨)

[10] رواه البخاري (٤٩٠٥)

[11] رواه البخاري (٣٦٧٨)

[12] المصدر السابق. (٣٨١١)

[13] رواه البخاري (٣١٤١)

[14] رواه الترمذي. (٣٣١٥) قال حديث حسن صحيح.

[15] الشفاء 2/568